من سلسلة «شذى المؤمنة»

صحوة الضّمير

من سلسلة «شذى المؤمنة»

صحوة الضّمير

موافقة مشيخة العقل

بتاريخ ٢٠١٦/٨/١٩

منشورات

المجلس المذهبي لطائفة الموحّدين الدروز

اللجنة الدينيّة

حقوق الطبع والنشر محفوظة ©

١٤٣٨هـ - ٢٠١٧ م

تأليف: هنادي غانم
رسم: شادي خدّاج
إخراج: ريما وهبي

مقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على سيِّد المرسلين وخاتم النبيّين، وآله وصحبه أجمعين إلى يوم الدِّين.

إنَّ بناء مجتمع توحيدي إسلامي على أسس قويمة وصحيحة يحتم علينا العمل على توعية الأجيال الصاعدة، وصقل أذهانهم وأفكارهم بما يتناسب مع ثقافتنا وتقاليدنا وأعرافنا، ومن هنا كان توجه اللجنة الدينية في المجلس المذهبي لطائفة الموحدين الدروز- وبمباركة مشيخة العقل - إلى وضع خطة جدية للعمل على تحقيق هذه الغاية، وكانت الانطلاقة في تأليف مجموعة قصص قصيرة، هادفة ومفيدة، تساعد الأجيال على تلقي الأفكار بطريقة سهلة واضحة، وتلبي احتياجات الأهل في توجيه وتربية أبنائهم، وتسهم في نشر التعاليم الدينية الراقية، وإحياء الأخلاق والعادات المعروفية بأسلوب منفتح.

اللجنة الدينيّة

نفضت الطّبيعة عنها رداء الثلوج والأمطار، وانتفضت على واقع الصّقيع والبرد، وهيأت نفسها لولادة جديدة. همست إلى الأرض بكلمة سحريّة فجنّ جنونها، فانبثقت الأعشاب الخضراء، وتعانقت مع نسيم الفجر ليترك نداه رفيقًا لنهارها. والزّهور ماجت تفوح بأريجها العاطر ترسله دعاءً في الرّوابي. أمّا الأغصان فقد تراقصت فاكتست أكمامها بتيجان بيضاء كحبّات اللّؤلؤ. كلّ ذلك احتفالاً بالرّبيع.

أطلّ الرّبيع عريس الفصول، فزيّنت الشّمس جبينه بوشاح ذهبي، وتربّعت ضاحكة في كبد السّماء، مترافقة مع غيوم بيضاء لوّنت وجنتيها، وراحت تبعث بأشعتها ودفئها إلى الأرض تاركة بصمتها في كلّ قلب حيّ مؤمن، تذكّره بضرورة تقديم الخير والمحبّة في هذا اليوم الجديد. وتناجت العصافير في صلواتها فحلّقت أسرابًا أسرابًا، كمن يجلس متضرعًا إلى ربّه يشكره على نعمة الحياة.

في هذا الجوّ العابق بروح الحياة والتّجدّد، روح البقاء والاستمراريّة، استفاقت "شذى" فرحةً تشارك الطّبيعة الأمّ فرحها، وأسرعت تفتح نافذة غرفتها تلقي بنظرها لترى اخضرارًا يملأ المكان، وراحت تمجّد الخالق على عظمة صنعته، وسعة رحمته، كيف يحوّل الأرض من خرساء جرداء قاحلة إلى روضة غنّاء عطرة؟! وكيف يعطي الإنسان ويرحمه؟! يكرمه ويغدق عليه بطبيعة تحضنه من غدرات الزّمن. وبدأت تهيئ نفسها لليوم الموعود.

فرحتها في ذلك اليوم كانت مقسّمة على فرحات عديدة، فرحة ببداية الرّبيع، الشّهر الذّي يحمل في انبثاقه عظمة الخالق وتجلّياته في أجمل لوحات الطّبيعة، وفرحة بمشاركة الأمّ عيدها، فهي رمز المحبّة والتّضحية، تتقاسم والطّبيعة لإفراح الإنسان. وفرحتها الأخيرة بسبب عزمها على زيارة خالتها القاطنة في المدينة.

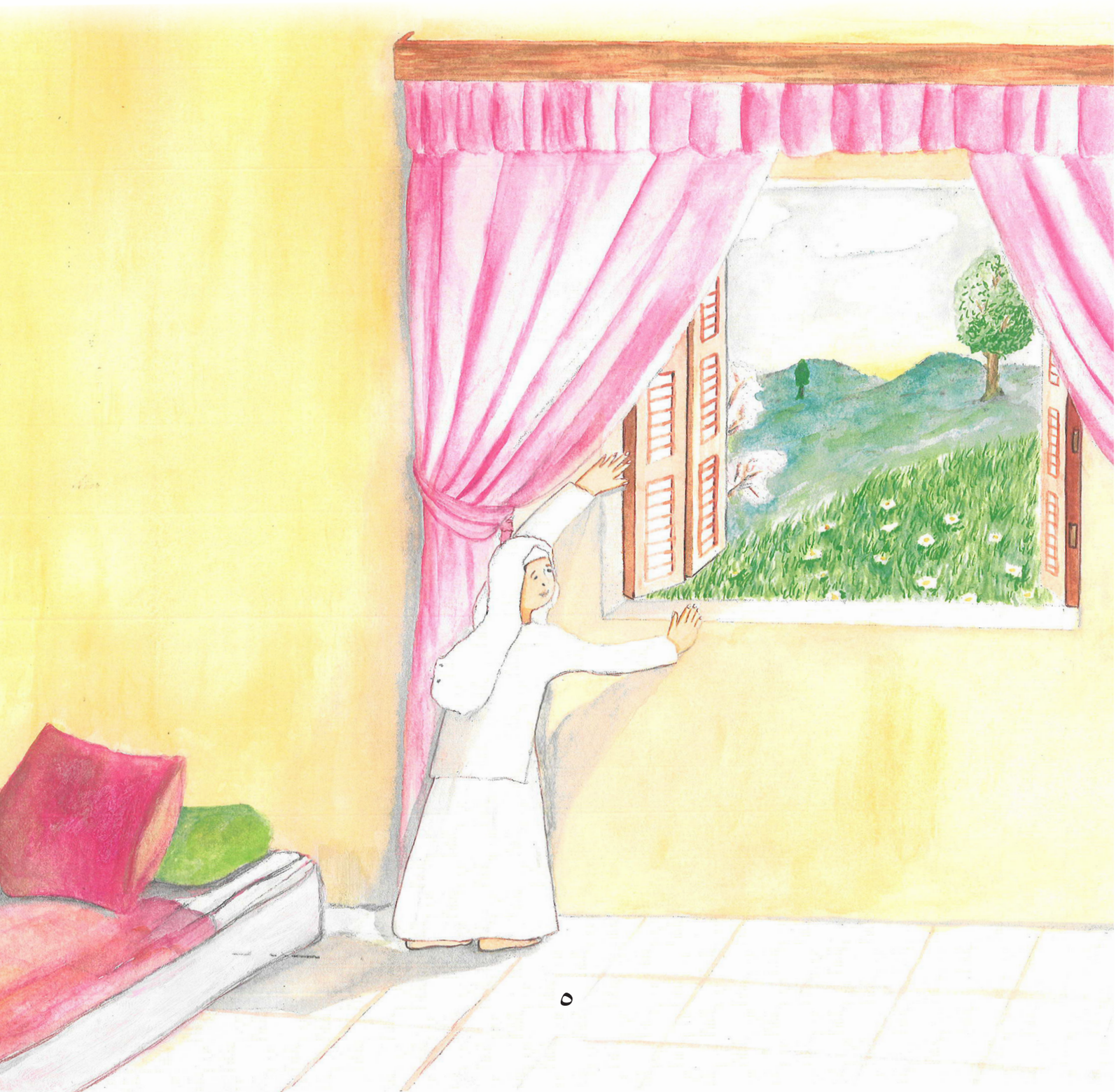

هيأت شذى نفسها، واستقلّت مع والدها سيّارة؛ لينزلا معًا إلى المدينة. راحت السّيّارة تسير بسرعة خيالية على منعطفات طريق القرية. وبعد ساعات وصلوا إلى مكان غريب، مزدحم بسيّارات مختلفة، وأبنية شاهقة تلامس السّماء، وشوارع مكتظة بأناس مختلفين عن أولئك الذّين اعتادت عليهم "شذى"، حتّى الهواء بات غريبًا عن نسيم قريتها. في هذه اللّحظات توقّفت السّيّارة أمام مبنى كبير، إلى جانبه مركن للسّيّارات. أنبأها خيالها بصور مشابهة لمبنى كانت ابنة خالتها قد أخبرتها عنه، واصفة لها مكان سكنها. وإذا بوالدها يسألها أن تنزل ليوصلها بنفسه إلى شقة خالتها، ويذكّرها بانتظاره عند المساء ليمرّ ويصطحبها.

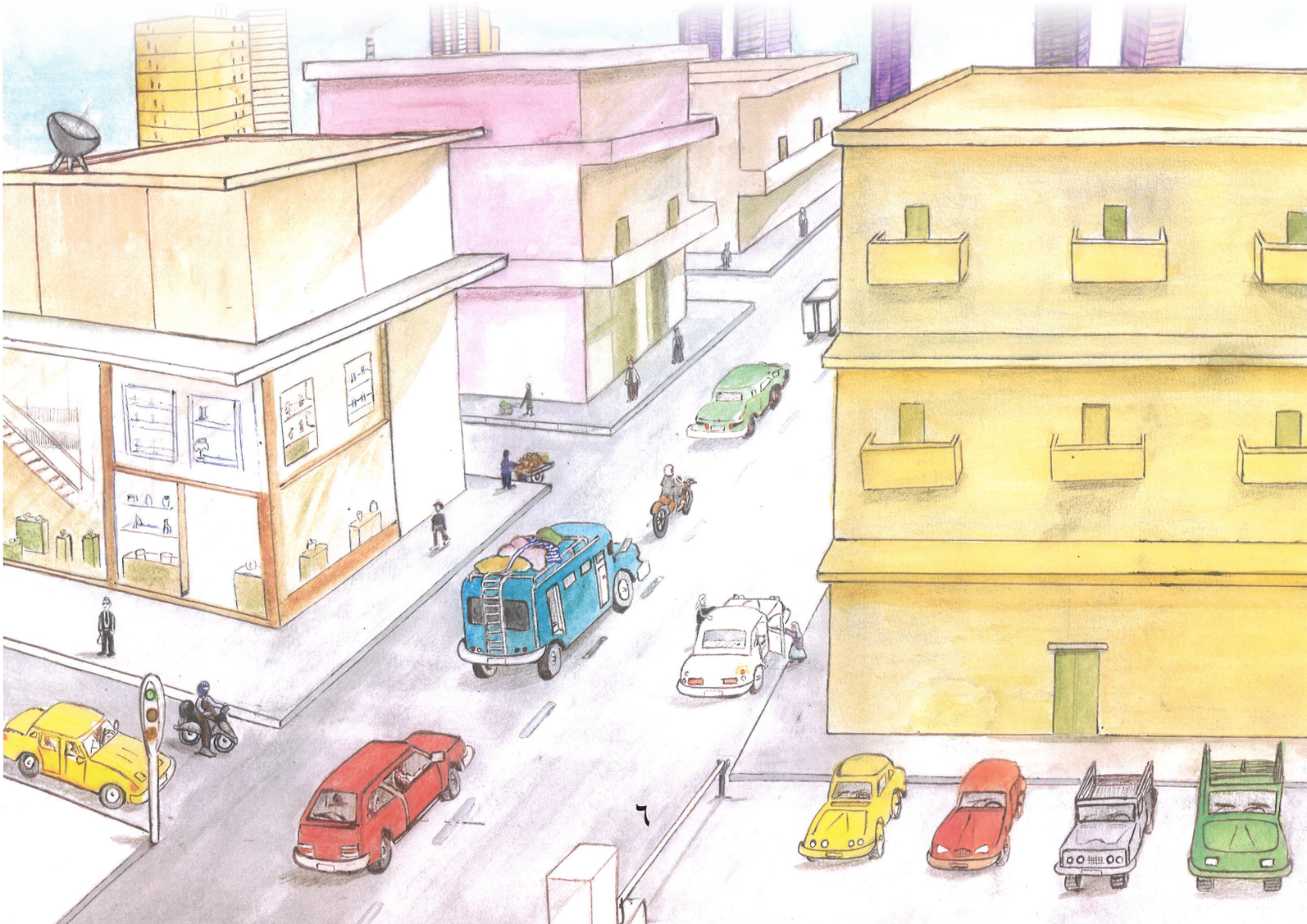

استعجلت "شذى" النّزول وذكّرت والدها بهديّة أمّها قائلةً:

– حسنًا يا أبي سأكون بانتظارك إن شاء اللّه، ولكن لا تنسَ هديّة أمّي، إختر لها ثوبًا من أفضل الأقمشة وأجودها، فهي تستحقّ منّا التّكريم والاهتمام.

دخلت "شذى" إلى بيت خالتها، وشرعت تخبرهم بالأشياء العجيبة التّي شاهدتها في طريقها، ثمّ أخذت تقصّ عليهم أخبارًا عن الضّيعة وأهلها. ولم تنسَ أن تسألهم عن حياتهم في تلك المدينة.

بعد فترة قصيرة أخبرتها خالتها بأنّها سوف تصطحبها بنزهة قصيرة إلى مكان مميز في المدينة. هيأت العائلة نفسها وبدأت ابنة خالتها تساعد والدتها في جمع الطّعام وحمل الهدايا إلى السّيّارة. وبعد أن انتهوا انطلقوا باتجاه مكان يلفه الغموض على ابنة قرويّة.

وصلوا إلى المكان، بينما كانت "شذى" تحاول تحديد موقعها من خلال الرّسومات المعلّقة، وبينما كانت عيناها تزرع التّساؤل في كلّ زاوية، شعرت بقلبها الضّعيف يدقّ بضربات صارخة، عندما لمحت لافتة كُتِبَ عليها "مأوى العجائز". يا لقساوة عبارة عُلِقت أمام أعين البشر، حتّى الحجر لكان صرخ تحنُّناً على الموجودين هناك!!

أخذت الأسئلة تتصارع في رأسها وترفض أن تستفسر عن معنى المكان. وقف الزّمن على عتبة المبنى، وراحت أخيلة البشر تتراءى كجماجم قاسية من خلف جدار خافت الرؤية. فهنا عجوز تحاول جمع صور أولادها مع كلّ إنسان يدخل بَهْو المبنى، وهناك أخرى تتكئ على رفيقة كبرها-عصاها- وتغوص بعينين حزينتين باتجاه المجهول، تحاول التقاط أنفاسها، علّها تستذكر حياتها الماضية، عندما كانت تعمل بجدّ ومشقة لتحصيل لقمة عيش لأولادها، ترجو الزّمن ليترك لها صورة الماضي مدركة بأنّه لم يبقَ لها غيره حقيقة.

وبعد هنيهات مريرة، تنهّدت "شذى" وسألت:

- خالتي، ماذا نفعل هنا؟ وماذا تفعل هؤلاء العجائز وحدهن هنا؟

ضحكت الخالة من براءة طفلة لم تعرف في قريتها إلاّ عطر المحبة، وصدق الأخلاق، والمحافظة على التّقاليد والدّين.

- نحن هنّا يا صغيرتي في مركز لرعاية العجائز، حيث جئنا لزيارة "أمّ زوجي".

– ولِمَ حماتك هنا؟ وكيف يرضى زوجك بهذا؟

– يا صغيرتي، العجوز أُصيبت بمرض يسمى"فقدان الذّاكرة" فهي لم تعد تعرفنا، وأنا لا أستطيع حمايتها ورعايتها.

– ومنذ متى كانت المحبّة مشروطة؟ ومنذ متى كان ردّ الجميل ينتظر مباركة الإنسان وحده؟ الظّاهر بأنّكم أنتم من أُصبتم بهذا المرض حتّى نسيتم أفضال هذه العجوز المرمية هنا عليك وعلى زوجك وأولادك.

أنسيتم بأن عرق جبينها مجبول بكلّ ذرة من ذرات أحجار بيتك، التّي قلّبتها يداها مئات المرّات لتجعل منها مأوى لأطفالها، أنسيت أن ظهرها كان جسرًا ليعبر عليه أطفالها صغارًا، فيغدوا بفضلها رجالًا يصنعون المستقبل. أين أنتم من قوله تعالى ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً ﴾ [الأحقاف:١٥]

صمتت الخالة أمام حقيقة جاءت قاسية كالقدر المحتوم، وحاولت الدّفاع عن نفسها، كجلاد يحاول تغطية أثار جريمته بثوبٍ مرقّع، ولكن نور الحقيقة ساطع لا تستطيع غيوم النّكران والإهمال حجبه.

– أنظري يا صغيرتي كيف قَدِمْتُ لزيارتها في يوم عيدها، وكيف سأقدم إليها الهدايا والحلوى.

وفتحت كيسها وأخرجت منه هديّة، ثمّ ناولت العجوز قطعًا من الحلوى قائلة:

– كلّ سنة وأنت بخير.

ثمّ تقدّم ابنها وقبّل يدها قائلاً:

– كلّ سنة وأنت سالمة يا أمّي.

رفعت العجوز نظرها باتجاه ولدها محاولة طرح سؤال لوّن وجهها.

- أمّي! أنا أمّك!! وهل عندي أولاد!! أين هم إذًا؟ ولماذا تركوني هنا وحيدة؟ لماذا لا أراهم في الصّباح؟ ولا أستمتع بمداعبة أولادهم؟ لديّ أولاد وأنا أصارع اليأس والوحدة...؟! وهل تركتهم أنا عندما كانوا صغارًا ضعفاء، غير قادرين على حماية أنفسهم من نهش الحياة؟

راحت الأسئلة تختنق مع أنفاس متنهدة، محاولة إيقاظ ضمير من تحت رماده، علّه يُشعل بقايا حنين فيتذكروا معاناة والدة، رسم لها القدر حياة حافلة بالعطاء والحرمان، حرمت نفسها تذوّق الرّاحة لتقدّمها لأولادها. فكيف جاءت النّتيجة؟!

ساد الصّمت لحظات لم تخلُ من نظرات بائسة وأنفاس متقطعة، ورجاء ميؤوس. ليقطعها صوت عجوز قريبة منهم، تطلب من الله سبحانه بيدين نحيلتين جف حبر الحياة من عروقهما، حماية ولدها، ذاك الشّاب الوسيم الذّي يقف بجانبها بأبهى حلته، مخبئًا عينيه بنظّارة سوداء، حاملًا باقة ورد اصطناعيّة يقدّمها لوالدته، وكأنّه يؤدي طقوس عبادة أمام صنم مسمّر. يخاف انتزاع نظّارته فتظهر من تحتها عيناه المجففة، جفاف الرّخام في وجهه من شدة القسوة والتّكبّر. وعلى من؟! على والدة صنعت من أكسير حياتها شرابًا لينمو! على والدة انتزعت شوك الأيّام من طريق فلذة كبدها ليمرّ ويجتاز عقبات الحياة بنجاح وراحة!

ولكن يومها لم تكن لتتصوّر بأنّه سوف يتخلّى عنها، أو يقدم إليها باقة زهرٍ تحاكي حياتها، لا لون ولا رائحة، خالية كقلبه من حروف لغة الورد، شكل فارغ أصمّ أخرس. أنَسي كيف كانت تراكض المروج في جريانها خلفه؟ كيف كانت تجمع من الزّهر تاجًا لرأسه! أنَسي بأن رضى الله سبحانه مقرون برضاها! ﴿ وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانا ﴾ [النساء:٣٦]

ألقى الشّاب سلامه على والدته وهمّ بالرّحيل، وراح يسألها طلبًا بنظرات معهودة، فما كان من الوالدة إلاّ أن مدّت يدها، وأخرجت بعض المال وأسدته لابنها، فأخذه وانصرف.

أثار هذا المشهد فضول "شذى"، فتقدّمت من العجوز وسألتها الشّرح. فأجابت:

– هذا ابني الوحيد، صاحب أشهر المراكز التّجارية، نعم! أرأيتِ كم هو وسيم!!

وتابعت بشغف خطّ الحزن خيوطه بين كلامها: "اعتاد أن يزورني كلّ سنة في مثل هذا اليوم، فهو دائم الانشغال"

– وماذا أعطيته يا جدّتي؟

– أعطيته بعضًا من المال، ثمن وقود سيّارته التّي تكلّف بها جراء زيارتي.

ابتسمت "شذى" للعجوز، وطبعت على جبهتها قبلةً كان ولدها قد تغاضى عنها، ثمّ مشت باتجاه خالتها، التّي كانت تحاول تغيير الأجواء

في ذلك المكان قائلةً:

– هل أعجبتك الزّيارة يا "شذى"؟ وأنت يا ابنتي، هل أعجبك المكان؟ أرأيت كم هو واسع ونظيف؟

تشجّعت الصّغيرة للتّعبير عن رأيها، ونطقت بكلمات حاكتها البراءة وصمّمها الواقع العادل، وطرحها باكرا أمام والدة نسيت بأنها ستصبح عجوزًا مع الأيّام.

– نعم يا أمّي، إنّه كبير وجميل كما قلت لي سابقاً.

– بالفعل يا صغيرتي، وسنأتي دومًا لزيارته، ردّد الأب ذلك فخورًا .

– بالطبع يا أبي، فأنا سأبقى آتي لزيارة جدّتي، وبعدها سأواظب على زيارتكما أنت وأمّي عندما تصبحان بعمر جدّتي.

– زيارتنا نحن!! هنا!!

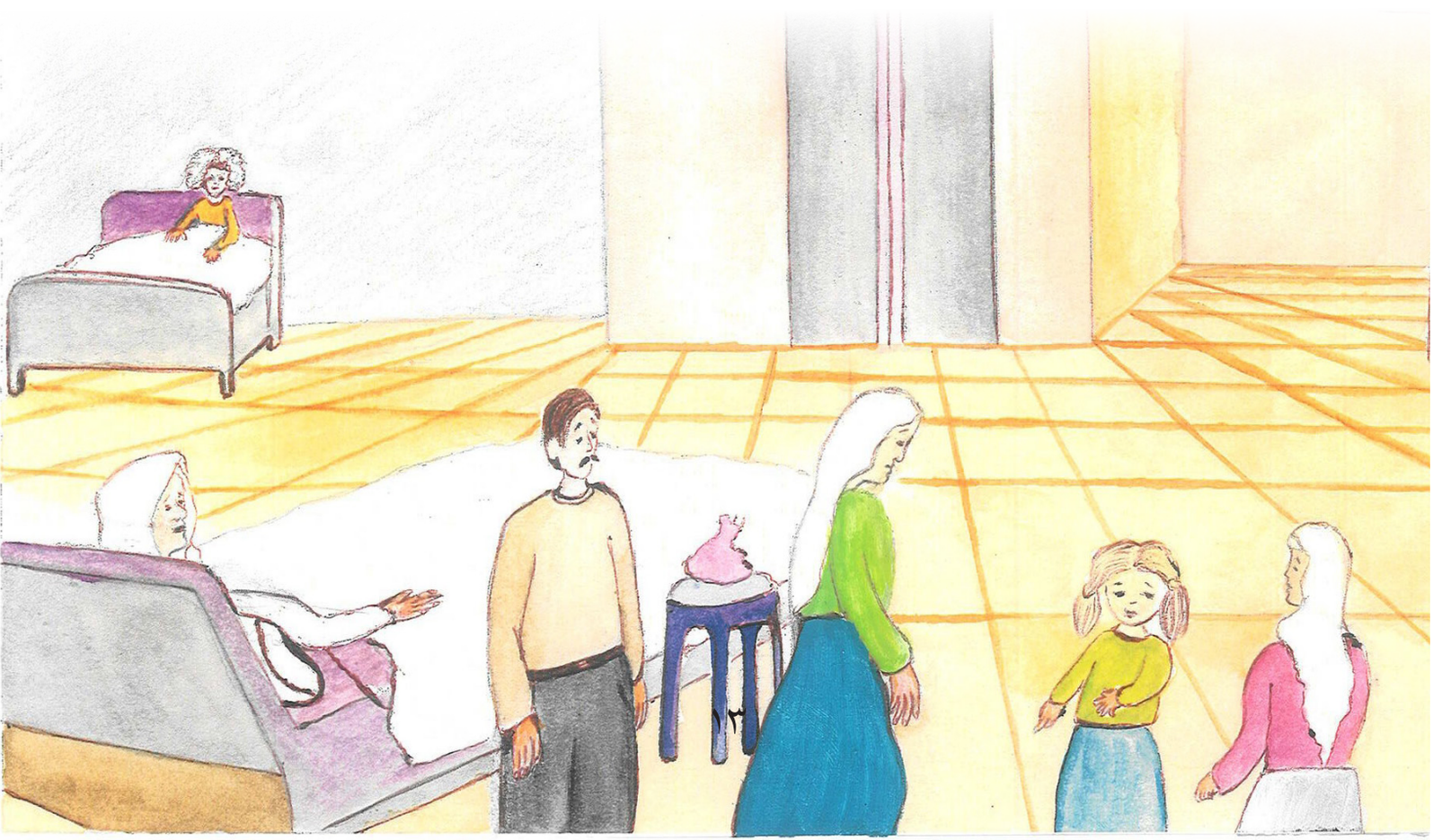

يا لها من سخرية قدر ضحك ضحكًا مريرًا، فأبان أنيابه زمهرةً على الواقع. صفعة تلقاها الوالدان من يد صغيرة ناعمة بعمر الورد، لم تنضج الأشواك بعد على أغصانها، ولكن يبدو أن أهلها قد استعجلوا تلك الأشواك، فأيقظوها باكرًا.

نظر الوالدان إلى بعضهما، ولم يَقْوَ الكلام على الرّدّ، فجاء الموقف صامتًا.

تحصّنت "شذى" بكلام الله عز وجلّ لتنطق به على مسامع الجميع قائلةً: قال تعالى ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [سورة الإسراء]

جاء كلامها كالنّدى على وجه الزّهر عند الصّباح، فأيقظ نفسًا غرّها الشّيطان، فتغافلت عن الإيمان، ولم تنظر لنور الله في قلبها، فحرّكها كما يتحرّك طائر الفينيق من تحت الرّماد، لينبعث من جديد في ولادة ثانية.

فتقدّمت الخالة من"شذى" وحضنتها قائلة:

– ليتنا فهمنا مغزى حديثك منذ البداية، وأدركنا حجم الخطيئة التّي قمنا بها. فليسامحنا الله، ونظرت إلى زوجها تطلب إليه أن يصححا خطأهما، ويعيدا العجوز إلى بيتها، ويرعياها بحبّ وحنان، فهم ما زالوا يعرفونها ويتذكرون أفضالها عليهم.

وعندما لفظت الشّمس أنفاسها الأخيرة معلنة نهاية النّهار، كانت العائلة تحتفل بالعيد مع العجوز في بيتها. أمّا "شذى" فقد ودّعت الجميع، وانطلقت مع والدها عائدة إلى قريتها، شاكرة الله على نعمة هداية البشر، ومساعدتهم لمحاسبة أنفسهم قبل أن يُحاسَبوا غدًا يوم القيامة.

﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَارًا ﴾ [نوح:٢٨]

من سلسلة «شذى المؤمنة»

١ – حكمة الطفولة

٢ – صحوة الضّمير

منشورات

المجلس المذهبي لطائفة الموحّدين الدروز

اللجنة الدينيّة

حقوق الطبع والنشر محفوظة ©